مقدمة

لم يظل الاهتمام بالتاريخ الوطني الجزائري حكرا على الإصلاحيين المعربين، بل ظهر مؤرخون جزائريون مارسوا النضال في حزب الشعب الجزائري وحركة انتصار الحريات الديمقراطية، ثم في جبهة التحرير الوطني، وكتبوا التاريخ الوطني باللغة الأجنبية ابتداء من سنوات 1940 و1950 م، وهذا ما سمح بوصوله إلى شرائح واسعة من القراء سواء الجزائريين أو غيرهم من الناطقين باللسان الأجنبي، حاولوا الانخراط في كتابة تاريخية أكثر جدية بطرح واقعي وموضوعي.

ومن بين المؤرخين الوطنيين الذين كتبوا بالفرنسية نذكر: مصطفى الأشرف الذي ألف كتاب" الجزائر الأمة والمجتمع " ومحمد الشريف ساحلي صاحب كتاب (Décoloniser l'histoire)، ومحي الدين جندر، ومحمد حربي ومحساس وغيرهم، هؤلاء ناهضوا ضد تحريف التاريخ من قبل المدرسة الاستعمارية الفرنسية سواء قبل الاستقلال أو بعده.

وهناك مجموعة كبيرة من المؤرخين الجزائريين الذين حاولوا كتابة تاريخ شامل لكل الحقب من العصر القديم إلى غاية الفترة المعاصرة مع محاولة ربط التاريخ الجزائري بالمشرق الإسلامي ردا على الإيديولوجيا الاستعمارية الفرنسية، التي اجتهدت في إيجاد مسببات الوجود الفرنسي الاستعماري لها بالجزائر، من خلال حقائق تاريخية مهمة، إلى جانب رسالتها التربوية وهدفها الوطني.

لقد عرفت الكتابات التاريخية وضعا مغايرا وظروفا مستجدة أثرت في توجهها واهتماماتها ونوعيتها ومواصفاتها، ففي الفترة الأولى، أي الستينات والسبعينات من القرن العشرين (1962- 1972 م) خضعت في مجملها لتوجهات ايديولوجية (اشتراكية) وميول سياسية (يسارية) ومهد لما تحول نوعي في النظرة وكمي من حيث الانتاج نتيجة المد التحرري الذي حد في الخمسينات من النظرة الاستعمارية، وهذا ما عبرت عنه مقررات ولوائح المؤتمرات الحزبية، وشجعت عليه توجهات الدولة الجزائرية وما حملته من مشروع وطني للتنمية الفتية، ودعمها تزايد عدد الخريجين الجزائريين من مختلف الجامعات وحصولهم على درجات علمية سمحت لهم بالتخصص في البحث التاريخي والاهتمام به، رخاصة قضايا التاريخ الجزائري الحديث.

وكانت جامعة الجزائر في الستينات فرنسية المناهج والتنظيم إلى غاية الإصلاح الجامعي في بداية السبعينات، وفي هذه الفترة ظهر جيل جديد من المؤرخين، كان من ضمنهم مجموعة من عروبيي الفكر واللغة، وعلى رأسهم:

أولا: أبو قاسم سعد الله (1930– 2013م):

01– المولد والنشأة

باحث ومؤرخ ولد بمدينة "قمار" إحدى مدن وادي سوف، حفظ القرآن الكريم وتلقى مبادئ العلوم من لغة وفقه ودين انتقل إلى جامع الزيتونة وبقي فيه حتى سنة 1954 م وحصل هناك على شهادة الأهلية، وفي أكتوبر من سنة 1955 م، سافر إلى القاهرة والتحق بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، وبعد أربع سنوات حصل على شهادة الليسانس في اللغة العربية والعلوم الإسلامية، وحاز على شهادة الماجستير في التاريخ والعلوم السياسية سنة 1962 م، ثم انتقل في نفس السنة إلى الو.م.أ حيث درس في جامعة مينيسوتا التي حصل منها على شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر باللغة الإنجليزية سنة 1965 م وتخصص في التأليف والترجمة، وكان حينها أستاذا مساعدا في التاريخ بجامعة "ويسكونسن أوكلير" بأمريكا ليعود بعد ذلك إلى الجزائر، حيث أصبح وكيل كلية الآداب بجامعة الجزائر 1968– 1972 م، ثم أستاذا ورئيس قسم التاريخ فيها.

انتقل الفقيد بتاريخ 1996 م، إلى الأردن ودرس التاريخ في جامعة "آل البيت" إلى أن عاد إلى الجزائر والتحق بالجامعة الجزائرية مجددا سنة 2001 م، ومنذ ذلك الوقت لم يترك التدريس في الجزائر، وأشرف على العشرات من رسائل الدكتوراه والماجستير، فأنتج أعمالا ضخمة بشأن تاريخ الجزائر جمعت بين الدراسات والترجمة وتحقيق المخطوطات، وقد أعطى لتاريخ الجزائر بعده الثقافي والحضاري، وهو بذلك يسير في ركب المدارس الغربية في توسيع الدراسات التاريخية لتشمل الفكر والثقافة والاقتصاد.

02– مؤلفاته: ومن أبرزها

أولا– في مجال التاريخ

أ– تاريخ الجزائر الثقافي: كتاب موسوعة ألم بمظاهر الثقافة الجزائرية من تفسير للقرآن والشريعة إلى الفنون الجميلة والموسيقى، وتظهر أجزاء عديدة العادات الإسلامية المتعلقة بحياة العلماء، ويشمل المجلدان الأولان الفترة الممتدة من سنة 1500 إلى سنة 1830 م، أي من الفترة التي سبقت العهد العثماني إلى بداية الاحتلال الفرنسي، وتشمل المجلدات الستة الموالية عهد الاحتلال الفرنسي، ويتضمن المجلد الأخير فهرسا شاملا.

يعالج الكتاب مجالا واسعا، إذ يلم بأشهر العلماء المسلمين الجزائريين والزعماء الدينيين، وفي نفس الوقت يتطرق إلى المثقفين الفرنسيين والمترجمين والمستشرقين، كما يتناول المسلمين الجزائريين ذوي الثقافة الفرنسية ومزدوجي الثقافة.

يمتاز أسلوبه الموسوعي بشمولية مطلقة العنان وتجزئة دقيقة حسب المواضيع في وقت واحد من الدراسة الأحادية، وهي الطابع العلمي الغربي الذي طغى على كتابة تاريخ الجزائر في الفترة التي تلت الاحتلال، فيدخل هذا الكتاب في الحسبان التحري عن شخصيات وأحداث وموضوعات لم يتفطن علماء ومؤرخون توجههم الاهتمامات النظرية الضيقة.

ب– الحركة الوطنية الجزائرية: وجاء في ثلاثة أجزاء بلغ عدد صفحاته 1223 صفحة طبع في دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، يتناول الجزء الأول الفترة الممتدة من 1830 إلى 1900 م، مقسم إلى اربعة فصول، أما الجزء الثاني فيتناول الفترة الممتدة ما بين 1900 و1930 م مقسم إلى سبعة فصول، أما الجزء الثالث يتناول الفترة من 1930 إلى غاية 1954 مقسم إلى تسعة فصول.

ج – **أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر:** يتشكل من خمسة أجزاء بلغ عدد صفحاته 1772 صفحة في طبعة خاصة سنة 2009 عن عالم المعرفة، ولقد تضمن معطيات علمية غزيرة وموضوعات متنوعة تتعلق بكتابة التاريخ وعلماء الجزائر والرحلات والحركة الوطنية والثورة الجزائرية والسيرة الذاتية للأمير عبد القادر وقضايا مرتبطة بالعلاقات التجارية بين المغرب العربي وإفريقيا إلى غير ذلك من الموضوعات التي قد لا نجدها في غيره من الكتب.

د – محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث (بداية الاحتلال): من إصدار الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر، يشمل دراسة الفترة الانتقالية من العهد العثماني إلى العهد الفرنسي في الجزائر.

ثانيا– في مجال التحقيق

رغم شهرته في ميدان التاريخ والأدب إلا أننا نجد له حضورا هاما في تحقيق المخطوطات الجزائرية والدعوة إلى نشرها مهما تفاوتت أهميتها وتنوعت أغراضها باعتبارها تراثا قوميا، لذا حقق عددا من المخطوطات التي تعود إلى تاريخ الجزائر الحديث مثل:

أ– رحلة ابن حمادوش الجزائري لسان المقال عن النسب والحسب والحال: لعبد الرزاق بن حمادوش، التي نشرها عام 1983 م، وهو عبارة عن رحلة احتوت على مصادر مهمة للتعرف على الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية في الجزائر والمغرب في القرن 18 م.

ب– منشور الهداية في كشف حال من ادّعى العلم والولاية: لعبد الكريم الفكون، ونشره عام 1987 م، تناول جانب التصوف في تاريخ الجزائر الحديث كما يعكسه عبد الكريم الفكون القسنطيني.

ج- تاريخ العدواني: مبرزا أهمية هذا المخطوط التي شرحها في قوله:"... إن كتاب العدواني يدخل من جهة فيما يسمى بالتاريخ المحلي، فهو يؤرخ لحياة القبائل التي استوطنت الجنوب الشرقي من الجزائر والجنوب الغربي من تونس وأصولها العربية ومسيرتها من المشرق إلى المغرب وصراعها ضد الحكام من حفصيين وعثمانيين، كما يؤرخ لحياة الناس تحت حكم المغامرين من مختلف المدن طرابلس، قفصة، القيروان، توزر، بسكرة، قسنطينة...، وفي أثناء ذلك يتحدث عن المرابطين ودورهم، وعن الحكام وعلاقتهم بالأجانب كالإسبان.

د- رسالة الغريب إلى الحبيب: لمؤلفه أحمد بن أبي عصيدة البجائي، والكتاب عبارة عن مراسلة بعث بها من الحجاز إلى صديقه ابي الفضل المشدالي بمصر.

هـ- حكاية العشاق في الحب والاشتياق: من تأليف الأمير مصطفى بن ابراهيم باشا، والكتاب عبارة عن رواية أدبية تاريخية تروي مغامرات عاطفية جرت بين ابن الملك وزهرة الأنس بنت التاجر.

كما حقق قطعا صغيرة مخطوطة، مثل وثيقة وقفية كتبها ابن مرزوق التلمساني (766 - 842) إلى أحد أهالي مدينة توزر التونسية، التي نشرها في شكل مقال بالمجلة التاريخية المغربية (تونس)، في العددين 17 و18 في جانفي 1980، حيث وضع لها مقدمة، ووصفها من حيث الخط والكاتب والتاريخ، وعرف بعض أعلامها، ثم نشرها كما وردت.

وعلق على مخطوط" ري الغليل في أخبار بني عبد الجليل من سلاطين بني فزان " لمحمد بن عبد الجليل الفزاني (القرن التاسع عشر الميلادي)، فوصفه وصفا سريعا، وبين مكان تواجده(المكتبة الوطنية الفرنسية)، ودعا إلى تحقيقه.

ثالثا- في مجال الترجمة

كان سعد الله موسوعة في الترجمة بحق، فقد ترجم في الأدب: "رسائل توماس كامبل عن الأدب الجزائري باللغة الإنجليزية"، ونشرها في كتابه دراسات في الأدب الجزائري الحديث، وترجم في السياسة والتاريخ وغير ذلك مما نشره في مختلف إصداراته .. إلا أنه كان يترجم حسب المرحلة التاريخية التي عاشها، أو حسب ارتباط عمله بإصدار أو بحث يقوم به، وعليه جاءت ترجماته مقصودة في مجملها وليست عفوية، والقارئ لترجماته على اختلافها يلاحظ بأن أغلبها تميز بتغيير في العناوين بعد ترجمتها لأسباب متعددة وأهداف مدروسة تفرضها الحاجة أحيانا أو لآرائه الخاصة أحيانا أخرى، وقد بدل بعضها واختصر البعض الآخر وأبقى على القليل منها مع إبداء ملاحظاته على الأصل.

وفيما يلي نورد بعضا من هذه الترجمات:

أ- ترجمة كتاب جون ب وولف (The Barbary Coast: Algiers under the Turk)، "الساحل البربري: الجزائر تحت الأتراك"، ترجمه تحت عنوان "الجزائر وأوروبا 1500- 1830 م"، وهو عنوان مغاير تماما للأصل، غابت فيه المادة الأصلية للعنوان، ذلك أن المؤلف من خلال عمله حكم حكما على الجزائر واتهمها بالضعف والتبعية، والمترجم دفاعا عنها ولغيرته على وطنه غير العنوان بما يوحي بالندية ليحفظ لبلده مكانتها ولكي لا يشعر قارئ النسخة العربية بالسوء.

ب- وفي ترجمته لكتاب شارلز هنري تشرشل:

(The life of Abdel Kader, exsultan of the Arabs of Algeria; written from his own dictation, and compiled from other authentic sources. By Colonel Churchill)

"حياة الأمير عبد القادر، السلطان السابق لعرب الجزائر، كتب من مذكراته وجمع من مصادر موثوقة أخرى. من طرف الكولونيل تشرشل)، حذف المترجم العنوان الأصلي كلية، وترجمه بـ: "حياة الأمير عبد القادر. تأليف شارلز هنري تشرشل"، مقلصا عنوانه إلى ثلاث كلمات، بعد أن كان عبارة كاملة، ربما ألن الكتاب يتحدث عن حياة الأمير عبد القادر الذي يعرفه القارئ العربي ولا حاجة لإعلامه بأنه سلطان عرب الجزائر، فهو أميرهم وقائد ثورتهم تجاه المستعمر، وهو الكتاب الذي قال عنه الشيخ أنه وجد فيه المتعة قارئا ومترجما نظرا للتجربة الكبيرة التي خاضها في ترجمته.

ج- أما في كتاب أدريان بيربروجير:

(Voyage au camp d'Abd-el-kader à Hamza. en Décembre 1837 et Janvier 1838) والذي ترجمته الحرفية "رحلة إلى مخيم عبد القادر في حمزة في ديسمبر 1837 وجانفي 1838"، فقد ترجمه بعنوان: "مع الأمير عبد القادر رحلة وفد فرنسي لمقابلة الأمير عبد القادر في البويرة 1837- 1838"، حيث لم يعتمد مبدأ الاختصار في الترجمة، وإنما غير العنوان تغييرا مع الشرح والتفسير، بحيث أضاف عددا من المعلومات تفهم بعد قراءة المتن، وذلك بتقديم إشارة موجزة عن هذه الرحلة ومكانها، ومن قام بها، ولأن الكتاب يدخل في أدب الرحلات، فقد خصه المترجم بكثير من الاهتمام، الذي يبرز من خلال المقدمة 11 (صفحة) التي ذكر فيها تفاصيل الرحلة وأسباب ترجمتها وغير ذلك، بلغة راقية وأسلوب شيق.

ومن خلال بعض تعليقاته على الكتب التي ترجمها، نشر مقالا في جريدة الشعب بتاريخ 22 / 23 مارس 1987 بعنوان: "**نظرة الأمريكيين للتاريخ الجزائري**"، وهو في الأصل إنجليزي بعنوان "من خلال العيون الأجنبية

وجهات النظر الغربية نحو إفريقيا" (Through Foreign Eyes Western Attitudes Towards North) حيث غير العنوان تغييرا جذريا، يوحي بأن الأمر ليس له علاقة بالأصل الإنجليزي، لأسباب وجوب مراعاة المترجم خلال ترجمته للمتلقي العربي والجزائري على وجه الخصوص وجود ما يسيء للجزائر، ولو على حساب الأصل.

رابعا– في مجال الإعلام والشخصيات الثقافية: اهتم سعد الله بتتبع آثار العلماء الجزائريين الذين كانت لهم اسهامات فكرية وتعليمية نذكر منهم:

أ– رائد التجديد الإسلامي، ابن العنابي المتوفي في 1850 م، صدر سنة 1990 م، تناول فيه المؤلف بالدراسة التحليلية المستقصية عصر وحياة وآثار الشيخ محمد بن محمود بن محمد بن حسين الجزائري الشهير بابن العنابي، صاحب كتاب ''السعي المحمود في نظام الجنود'' وغيره من المؤلفات القيمة، وعلى دوره في عصره وعلى مدى صالحية أفكاره وبقائها.

ب– كتاب حول "شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة" صدر سنة 1960 م، تركه مخطوطا وتولى الشيخ البشير الإبراهيمي نشره في القاهرة بعد أن سافر سعد الله إلى أمريكا، حيث خصص الكتاب كله لدراسة شعر محمد العيد آل خليفة متبعا المنهج التاريخي في إطار المفاهيم النقدية والإجراءات التحليلية، بالإضافة إلى محاولة توخي صاحبه العلمية والموضوعية في المناقشة والتحليل.

ج– شيخ الإسلام داعية السلفية عبد الكريم الفكون صدر سنة 1986 م، وهي دراسة لحياة وآثار شخصية نابضة من شخصيات العالم الإسلامي في عصور الانحطاط، وهو عبد الكريم الفكون، الملقب بشيخ الإسلام، الذي عاش خلال القرن 17 م، في الوقت الذي اشتدت فيه القطيعة بين العالم الإسلامي الجامد والعالم الأوروبي المتحرك، وازدهر فيه التصوف المزعوم وانتشرت الأمية في المجتمعات الإسلامية، واستولى فيه على مقاليد السلطة حكام جهلة، في هذا الجو ظهر شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون، فحمل معول الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجاهد في سبيله.

د– كتاب القاضي الأديب محمد الشاذلي القسنطيني صدر سنة 1984 م، درس هذا الكتاب سيرة الشيخ محمد الشاذلي القسنطيني (1807– 1877 م) من خلال رسائله وشعره، وقد عالج فيه المؤلف عصر الرجل وحياته، ورحلاته إلى أوروبا، ومراسلاته وبعض مواقفه، وعلاقته بالأمير عبدالقادر، وشعره وشاعريته.

هـ– كتاب عن الطبيب الرحالة عبد الرزاق بن حمادوش، كما كتب عنه بحثا آخر بعنوان ''عبد الرزاق بن حمادوش ورحلته لسان المقال''، وأيضا قام بتحقيق ونشر رحلته ''لسان المقال''، وله بحث آخر عنه بعنوان''رسالة في الكرة الفلكية لابن حمادوش''.

و- باحث مغمور نور الدين عبد القادر أفرد سعد الله هذا الكتاب لترجمة عالم ومثقف معاصر خدم العربية والتراث الإسلامي في الجزائر خلال مرحلة الاحتلال الفرنسي، وقضى حياته مدرسا ومترجما وكاتبا، إنه الأستاذ عبد القادر الحميدي أو نور الدين عبد القادر كما عرف بين المعاصرين، والذي عاش في الجزائر ما بين 1890 1981 م بعيدا عن الأضواء غير مشارك في الحياة العامة، حتى أنه لا يعرفه من الجزائريين إلا القليل.

خامسا- في مجال الأدب والفكر: نذكر مجموعة من المؤلفات منها:

- أفكار جامحة 1988 م.
- تجارب في أدب الرحلة 1986 م.
- دراسات في الأدب الجزائري الحديث 1966 م.
- الزمن الأخضر.
- ديوان سعد الله الشعري 1985 م.
- في الجدل الثقافي1993 م.
- سعفة خضراء(قصص) في 1986 م.
- قضايا شائكة 1988 م.
- منطلقات فكرية 1982 م.
- هموم حضارية في 1993.

بالإضافة إلى كم هائل من البحوث والمقالات التي نشرها في عدة مجلات.

ومن هذا المنطلق نجد أن كتابات سعد الله في عمومها تميزت بالطرح الموضوعي والعلمي نظرا لاعتمادها على مناهج علمية أصيلة باسترداد الأحداث التاريخية وتحليلها بطريقة موضوعية، فالمؤرخ أبو القاسم سعد الله من الذين أثروا الكتابة التاريخية والفكرية الجزائرية المعاصرة بما أنتجه من مؤلفات كثيرة وغزيرة تنوعت بين التأليف والتحقيق والترجمة أرسى بها قواعد المنهج الأكاديمي، فهو يعتبر بحق أحد لبنات التاريخ الوطني وأحد أهم مرجعياته.